حنين الروح

حنين الروح

أنا ابنة عائلة مهتمة بتعليم أولادها، فأصبح هؤلاء معلمين ومدراء في المدارس وكنتُ الابنة المدللة في البيت، لدي أخ واحد أصغر مني، وبقية أخوتي جميعاً أكبر مني، نحن 5 صبية و6 بنات، إضافة إلى أخين من أم أخرى، ربتهما أمي مثل أولادها، وكلاهما ضباط في الجيش. قتل أحدهما أثناء محاولة انقلاب على النظام في الثمانينات.

نلت شهادة البكالوريا، ثم درست عاماً واحداً في معهد الصف الخاص الذي يخرّج معلمات، تركته حين تزوجت وسافرت مع زوجي إلى ليبيا حيث يعمل حداداً. واصطحبتُ أخي الأصغر معي لأنني لا أتحمل فراقه، فهو توأم روحي.. لقد اختفى منذ عشر سنوات، أثناء الحرب في سوريا، ولم نسمع عنه أي خبر بعد ذلك.

كانت الحياة في سوريا رائعة، قبل الحرب، وكنا نمضيها بين حلب وإعزاز حيث بيت جدي الذي نمضي فيه فصل الصيف، حين ننزل إلى إعزاز كان يجتمع كل الأقارب والجيران ونسهر سوية، وكانت لدينا هناك بساتين تين وعنب، نذهب إليها مع الأهل والجيران في الصباح ونقطف الفاكهة التي يأكلها الجميع، فقد كان وضعنا المادي جيداً ولا نحتاج إلى بيع الغلال.

توفي أبي وأنا في الصف السادس، وقد تأثرتُ كثيراً لفقدانه، فكنتُ أقف أمام صورته المعلقة على الجدار، أتحدث إليه وأبكي.. لا شيء أصعب على النفس من كلمة يتيم، يعيش معي اليوم في تركيا، أولاد أختي التي توفت بسبب السرطان، وأنا لا أقول لهم يتامى بل إن أباهم متوفى.

أما أمي فقد توفت حين كنت مقبلة على ولادة ابنتي الثانية، فقد عدتُ من ليبيا لأضع مولودتي في سوريا، وبقي زوجي هناك، كانت أمي تعيش مع أخي الأصغر، بعدما زوّجت كل أولادها وبناتها، في إحدى الليالي استيقظت على أنين أمي من الألم، سألتها عما بها، فقالت إنها ستتقيّأ، فأحضرت لها وعاءً من أجل ذلك، فتقيّأت دماً، ثم اتضح أن كبدها كان ينزف، بعدها بيومين دخلت في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام إلى أن وافتها المنية.

كانت الفترة الأولى من حياتي في ليبيا صعبة عليّ، فأنا في بلد غريب لا أعرف فيه أحداً ولا أفهم كلامهم بلهجتهم الخاصة، واستغربت نمط الملبس الغريب علينا، كان أصحاب البيت الذي نسكنه أم وأربع بنات يسكنّ في البناء ذاته، لا تظهر منهن سوى العيون، ولم يكن عندي تليفون ولا تلفزيون في البيت، فكنت أبقى اليوم بطوله في البيت وحدي، بانتظار عودة زوجي من عمله في المساء.. بعد نحو عشرين يوماً من سكني في البيت، جاءت الأم وبناتها وزرنني في بيتي للمرة الأولى، واكتشفت أنهم ودودات جداً ولطيفات، فنشأت بيننا صداقة، وصرن يزرنني كل يوم فنتبادل الحديث. عرّفنني على ابنة عم لهن طبيبة وتحمل نفس اسمي، أصبحت صديقتي المقربة، وما زلنا إلى اليوم على تواصل دائم.

لقد تعلمت اللهجة الليبية وأصبحت أشعر أن ليبيا هي بلدي الثاني، على رغم مغادرتي لها منذ العام 2013، والآن ابني وابنتي يعيشان هناك مع طليقي، وكم أتمنى أن ألتقي بهما.

حين بدأت الحرب في ليبيا عدنا إلى سوريا، وكنت أملك ورشتين في ليبيا وثالثة في الأردن، أقمنا في فيلا كنت قد بنيتها في إعزاز، وبعد نحو تسعة شهور عدنا إلى ليبيا بعدما هدأت الأوضاع هناك، وبعد سنتين بدأنا نسمع بخروج مظاهرات في سوريا. كانت هذه الأخبار تثير ألمي، فبرغم الظلم كان هناك أمان في سوريا. من كانوا في سوريا لم يعرفوا قيمة ذلك، أما الذين في الغربة مثلنا فنظرتهم تختلف. بصراحة كنتُ ضد الثورة حين بدأت، لأنني مقتنعة أن بلدنا يجب ألا يتم تخريبها. وكنتُ أرى فيما يحدث فتنة لا ثورة، فمن قاموا بالثورة هم الذين خربوا البلد، وسرقوا أرزاق الناس، وقتلوا الأبرياء، ومن كان له ثأر مع جاره حمل السلاح وقتله، الليبيون الذين قاموا بالثورة ندموا على ذلك وصاروا يترحمون على أيام القذافي، في الفترة الأولى رفعت علم سوريا على شرفة بيتي، فجاءت اللجان الثورية الليبية في قافلة من عشرين سيارة واتهمونا بأننا من أنصار بشار الأسد، فقلت لهم: "نعم، فهو رئيسنا". فقالوا: "ممنوع ترفعوا هذا العلم".

حين عدنا إلى سوريا في العام 2013 بدأت مأساتنا العائلية. فحين وصلنا إلى مطار حلب احتجزوا جوازات سفرنا، وطلبوا منا مراجعة المكتب الثالث أو فرع فلسطين في دمشق.

في فرع فلسطين في دمشق سألونا عما كنا نفعله في ليبيا، وعاملونا معاملة حقيرة، أنزلونا إلى مكتب تحت الأرض حيث سمعنا صرخات أشخاص يتعرضون للتعذيب في غرفة مجاورة، وقال لنا ضابط يدعى "أبو حيدر" إنهم سيعذبوننا مثل من نسمع صرخات ألمهم، واتهمنا بأننا كنا نتعاون في ليبيا مع الجماعات الإرهابية هناك، وسألنا عن مصدر الأموال التي معنا، وجعلونا نقصد الفرع يومين متتاليين، بل إن أحد الضباط راودني عن نفسي بحقارة..

احتفظوا بزوجي يومين إضافيين بعد خروجي من الفرع. وحين عاد إلى إعزاز أخبرني أنهم طلبوا منه مراجعة الفرع مرةً أخرى بعد عشرة أيام، كنا ضد الثورة في البداية، ولكن بعد تلك المعاملة معنا أصبحت أدعو على بشار الأسد وأقول: الله لايسامحو

كان أهلي مع الثورة، وأحد أخوتي انضم إلى الجيش الحر. وفي عائلتنا تمتد معارضة النظام إلى فترة الثمانينات. فقد كان خالي من قادة الإخوان المسلمين، وقد هرب إلى تركيا حين أصبح في خطر، وكان أحد أخوتي طياراً والآخر ضابط في الجيش، اشتبه النظام بعلاقة محتملة لهما مع الإخوان المسلمين، فألقى القبض عليهما. قتل أحدهما وأطلق سراح الثاني بعد سنة ونصف من الاعتقال بمساعً من أبي الذي كانت لديه علاقات في الدولة. وبعد خروجه تم إبعاده عن الطيران ونقله إلى جهاز المخابرات، فحقد على الدولة، وحين قامت الثورة انشق وانضم إلى الثوار، في العام 2013 تم اعتقاله ولا نعرف مكانه إلى اليوم.. أما أهل زوجي فقد كانوا مع النظام، وقد حدث خلاف بيني وبين أخوتي بسبب ذلك.

لم أرافق زوجي في رحلته الثانية إلى دمشق لاستلام جوازات سفرنا من فرع فلسطين خوفاً مما قد يحدث، في طريق عودته أوقفه حاجز في السلمية، واحتجزوه طوال ثلاثة أشهر قبل أن يتمكن من الهروب، وفي غضون ذلك اتصلوا بي وطلبوا فدية، إضافة إلى ضابطين فقدا في إعزاز.. لقد دفعنا الفدية ثلاثة ملايين ليرة، قبل أن نعرف أنه تمكن من الفرار، أما الضابطين فسبق وقتلا في إعزاز.

بعد ذلك تم اختطاف أخي الكبير، واتهمتنا زوجته بأننا وراء خطفه مقابل إطلاق سراح زوجي. أما أهل زوجي فقد اتهموا أخوتي بخطف زوجي، وهددوا بالانتقام، بسبب هذه الاتهامات المتبادلة بدأت أخاف من البقاء في البيت وحيدة، فانتقلت للإقامة عند أختي، وبعد ثلاثة أيام تم اختطاف زوجها أيضاً، فاتهمتني بتدبير ذلك وطردتني بصراحة، وقبل أن أغادر بيتها عاد زوجها الذي عثر عليه مقاتلو الجيش الحر، وكان في حالة رهيبة وقد فقد عقله، ورأت أختي على ظهره آثار جرح وكأنه تعرض لعمل جراحي. وقال إنهم اقتادوه إلى دمشق ليأخذوا منه إحدى كليتيه، ثم غيّر كلامه فقال إنهم اقتادوه إلى تركيا، فلم نعرف على وجه اليقين ما الجهة التي قامت باختطافه ولا إلى أين أو ما الذي فعلوه به.

في غضون ذلك كان زوجي قد تمكن من الهرب من خاطفيه وعاد إلى بيت أهله في دير حافر، وقد اتخذ موقفاً سلبياً مني، لأنه كان مقتنعاً أنني كدتُ أتسبب بمقتله أثناء احتجازه، وسبب ذلك أنني، في أحد اتصالات خاطفيه، وبعدما ألح علي في طلب إعادة الضابطين المفقودين من سلمية، أخبرته أنهما قتلا قبل فترة طويلة، سأعرف من زوجي أنه حين أنهى اتصاله معي، وجه مسدسه إلى رأس زوجي وأراد أن يقتله، بعدما أخبره بما قلتُه عن مصير الضابطين، وهكذا حقد زوجي عليّ لأنني "كنتُ سأتسبب بقتله".

إضافة إلى ذلك واظب أهله على تحريضه عليّ أثناء زيارتي له في بيتهم، وقالوا إنهم خطبوا له امرأة أخرى، وهكذا انتهت العلاقة بيننا إلى الطلاق، فتركت له الأولاد وعدتُ إلى حلب.

تنقلتُ في حلب بين عدة بيوت في أحياء مختلفة هرباً من القصف الذي اشتد في تلك الفترة، بعدما تمركزت "داعش" في بعض المواقع داخل المدينة. فانتقلت إلى إعزاز، لكن القصف سرعان ما اشتد هناك أيضاً. لقد عشت في تلك الفترة لحظات رعب لا أنساها حين تسقط قذيفة على موقع مجاور لمسكني، كذلك كان الناس يختفون فجأةً فلا نعرف مصيرهم.

انتشر قطاع الطرق في الأرياف، فلم يعد هناك أي مكان آمن. وفي المدينة تنتشر الحواجز والقناصون فيصبح التنقل من حي إلى آخر محفوفاً بالخطر على الحياة. إضافة إلى ندرة المواد الغذائية وانقطاعات الكهرباء، كل هذه الظروف دفعتني أخيراً للانتقال إلى تركيا حيث تزوجتُ رجلاً سورياً من معارف ابن خالي، زعم أنه يحبني، ثم سيتضح لي أنه كان طامعاً بما أملكه من مصاغ ذهبي لا أملك شيئاً غيره. وكان متزوجاً من امرأة أخرى أخبرتني أنها موافقة، ثم بدأت تنكل بي، هي وزوجها، إلى أن انفصلتُ عنهم واستأجرت بيتاً لا يستحق اسم البيت. تنقلتُ أيضاً بين عدة بيوت، ثم أحضرتُ أولاد أختي من مخيم لاجئين كانوا يعيشون فيه ليعيشوا معي، بعدما توفيت أمهم بسبب مرض السرطان، فباتوا يتامى صغار في السن لا أحد لهم ليعتني بهم.. في غضون ذلك اهتديتُ إلى منظمة مجتمع مدني سورية قدمت لي مساعدة مالية شهرية وتدريباً مهنياً منحني مصدراً للرزق، ومنظمة ثانية اهتمت بوضعي وقدمت لي دعماً نفسياً كنتُ بأمس الحاجة إليه، وبفضل التدريب المهني الذي حصلتُ عليه اشتغلتُ في صالون حلاقة نسائية، ثم في إعداد الطعام الجاهز في البيت لتلبية طلبات بيوت، كذلك عمل عدد من أولاد أختي بعدما كبروا.

وبعد فترة طويلة عاد إليّ زوجي. أما أولاد أختي فقد قرروا الانفصال عني في سكن مستقل.. أكثر ما يؤلمني الآن هو أن أولادي قد كبروا بعيداً عني، اثنان منهم في ليبيا مع أبيهم، وابنتان تزوجتا في إعزاز. أتمنى أن أجتمع بهم من جديد.

كل المآسي التي أصابتني هي بسبب هذا النظام الذي عانى منه كل السوريين الشعب السوري لا يستحق كل ما أصابه من ظلم فظيع، فهو شعب راقٍ ويثبت كفاءته أينما ارتحل، الشعب السوري طيب ومبدع، قوي ومكافح، لسنا لاجئين كما ينظرون إلينا، بل نكسب رزقنا بتعبنا وكفاحنا.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & Missing in Sednaya Prison